الباب السابع

سياسات التصيين

سياسات التصيين

تركستان هي البلاد الثمينة التي يستشرس الصينيون في السيطرة عليها وقمع سكانها ولو بالإعدام فالمشروع الاقتصادي الاستراتيجي، وهو ينطلق من تركستان، يعني أن خيارات الصين لا تكاد تتجاوز الصفر فيما يتعلق بحق تقرير المصير للسكان، كما تأمل ربيعة قدير وبالتالي فإن معادلة الصراع بين الجانبين تعني بالنسبة للصينيين عمل كل ما يمكن عمله للقضاء على هاجس الانفصال الذي يؤرقها ويعرض مشروعها لأفدح المخاطر، وتعني بالنسبة لقومية الأويجور المسلمة استمرار الكفاح بكل الوسائل للحيلولة دون التهويد بأبشع مواصفاته الصينية والسؤال ليس عما سيفعله الأويجور بل عما فعلته الصين في البلاد كي ينفجر الأويجور ويخرج منهم كل هذا الغضب العارم؟ وكيف طبقت الصين سياساتها على السكان في سينكيانج؟.

ترجع الأحداث الراهنة في سينكيانج إلى ليلة 26 يونيو 2009، حين قتل الهان عاملين من الأويجور في مصنع للألعاب في منطقة شاو جوان جنوب الصين لكن ثمة أنباء وشهادات أويجورية تحدثت عن جرائم مروعة في المصنع نفذها أكثر من 6000 عامل من الهان، وأسفرت عن مقتل أو اختفاء قرابة 500 عامل من الأويجور وهم نائمون.

ورغم وجود كاميرات الإنذار وتمتع المصنع بحراسة أمنية مشددة إلا أن الشرطة لم تصل إلا بعد مضي خمس ساعات على وقوع المجزرة، مما وضع علامات استفهام وتَسبب فى احتقان شديد لدى الأويجور حول وجود نية مبيتة لارتكاب الجريمة المروعة لكن الأكيد أن الروايتين تظلان موضع ريبة لضعف المعلومات الدقيقة فليس من المعقول أن تنفجر كل هذه الأحداث بسبب مقتل عاملين فقط، وليس من الممكن قبول الرواية الثانية مطلقاً بسبب غياب أية أدلة موثقة حتى وإن كانت صحيحة أو أقرب إلى التصديق.

أما شرارة الأحداث فقد بدأت يوم الأحد 5 يوليو 2009 مع تجمع نحو ثلاثة آلاف من الطلبة الأويجوريين والسكان، في ساحة رئيسية بالعاصمة أورومتشي، احتجاجاً على طريقة تعامل السلطات مع مقتل العاملين، إذ يتهم الأويجور السلطات الصينية بعدم التحقيق في أحداث المجزرة وتحديد المسئولين عنها والمتواطئين ومعاقبة الجناة وأدى

تدخل القوات الصينية لفض المحتجين إلى مقتل 140 شخصاً وإصابة 816 بجروح وارتفع عدد القتلى تباعاً إلى 156 شخصاً، ثم في حصيلة نهائية رسمية إلى 184 شخصاً ومن جهته قال عبد الحكيم تكلامكان، رئيس الجمعية الأويجورية للتعاون مع تركستان الشرقية في مقابلة له من إسطنبول مع قناة الجزيرة، أن عدد القتلى بلغ نحو 600 قتيل وآلاف الجرحى والمعتقلين في الأحداث.

لكن توصيف الأحداث بكونها الأعنف منذ عقود لا يخلو من غرابة ومفارقات مريرة فالأويجور ومسلمو الصين يتعرضون منذ قرون لمذابح صامتة ظلت تقع خلف الأسوار دون أن يعلم بها أحد، أو بفعل الصمت والتواطؤ والعجز الدولي عن نصرتهم سواء من المسلمين في شتى أنحاء العالم أو مما يسمى بالمجتمع الدولي الذي تهيمن عليه القوى الكبرى وتحركه وفقاً لمصالحها واحتياجاتها ومن المفارقات أن صحيفة كريستيان ساينس مونيتور أبدت دهشتها كما لو أن الصمت الإسلامي وحتى الدولي سلوك عارض حين أشارت إلى أن: أغلب المسلمين في جميع أنحاء العالم التزموا صمتًا قاتلاً حيال الاعتداءات العنيفة التي وقعت على الأويجور المسلمين.

ومع أن أوراق الضغط العربية كثيرة خاصة وأن حجم المعاملات التجارية للشركات العربية مع الصين بلغت في 2016نحو 130 مليار

دولار، إلا أن الأويجور لم يجدوا من ينتصر لهم لا في الماضي ولا في الحاضر، وأبرز ما حظوا به، على الدوام، من حصة الأسد هو النسيان والقمع الرهيب والسياسات الصينية التي حولت بلادهم إلى ما يشبه فلسطين المنسية أو الأندلس الضائعة وعليه فليس غريباً أبداً أن يرصد الكثير من الباحثين والكتاب ما يسمونه بتصيين تركستان قياساً على تهويد فلسطين، لكن الغريب أن تنجح هذه السياسة في غضون ثلاثة عقود على الأكثر وإذا ما استمرت بنفس الوتيرة لعقدين أو ثلاثة على أقصى تقدير فعلى تركستان الشرقية السلام فكيف سيكون الصراع بين الأويجور وسط عشرات الملايين من المستوطنين الهان مستقبلاً؟.

لئن كانت الدعوات الصينية في قمع سكان البلاد قائمة على أطروحة الانفصال، فليس ثمة تطلعات سياسية، ذات شأن، للأويجوريين في الوقت الراهن إلا ما تعبر عنه الجماعات الإسلامية التي تطالب بإقامة دولة إسلامية في بلادهم وخلافاً لمزاعم الحكومة الصينية التي تقول بأن إجراءاتها تستهدف ما تسميه بالجماعات الانفصالية فإن وقائع سياساتها في الإقليم، والتي لا تستثني أحداً، تفضح كل مزاعمها فلنتابع بعض مظاهرها فيما يلي:

1) السياسة السكانية

الصين تنام على مخطط قديم يرجع إلى أوائل الخمسينات من القرن الماضي ويقضي بتوطين 200 مليون صيني في الإقليم من قومية الهان لكنها نجحت نسبياً ابتداء من الثمانينات عبر الزج بملايين الصينيين للاستيطان في الإقليم وسط حوافز اقتصادية مغرية فيما يسمونه بالعالم الجديد أو المستعمرة الجديدة صحيح أن المسلمين في الإقليم ليسوا مقيدين، نظرياً، بسياسة المولود الواحد، لكن ما بيدهم حيلة لمواجهة أشد السياسات السكانية وحشية سواء عبر النفي والإبعاد والعقوبات الجماعية والعمل القسري الشاق في المعسكرات الحزبية للإناث والذكور أو عبر التلاعب بديموغرافية الأويجور البيولوجية على مختلف المستويات من منع الحمل إلى الإجهاض والتعقيم وتحديد النسل والتحكم الفظيع فى النمو السكاني.

كما أن للصين رصيد ديموغرافي لا يجاريها فيه أحد بحيث يمكنها الدفع بعشرات الملايين للاستيطان في الإقليم ومن بين ما تلجأ إليه الحكومة تشغيل الذكور الأويجور والإناث على وجه الخصوص في مناطق نائية بما يسمح، مع مرور الزمن وصعوبة السيطرة على الاختيارات الشخصية في الحياة، باختلاط الأنساب وضياع الدين والهوية وفي السياق أورد بيان أصدره المركز الإعلامي للحزب الإسلامي تركستاني فى 1 ربيع أول 1430، 25 فبراير 2009 إحصائية تفيد أنه:

تم نقل مليونيين من الفتيات المسلمات إلى الصين، وفي المقابل ينقلون أعدادا كبيرة من الصينيين إلى تركستان من أجل اختلاط الأنساب بينهم وبين الشعب تركستاني، ويُسجن كل من يعترض على هذه السياسة أو يُعرَّض للغرامة المالية وإلى غير ذلك من القهر والذل.

لكن يبقى أمر بالغ الدلالة في المسألة السكانية إذ أن الحكومة الصينية هي المصدر الوحيد للإحصاءات عن السكان في الإقليم ونسب القوميات فيه لذا فإن أغلب الأرقام المتداولة عن عدد السكان تقديرية وخاظئة وتتراوح بين 18 مليون و20 مليون و25 مليون بمن فيهم قومية الهان ولا شك أن الحكومة تخفي الأرقام الحقيقية والدقيقة عن عدد السكان، وفي المقابل نراها تروج لما تراه حقيقة واحدة تقول بأن الهان هم القومية الثانية بينما عدد الأويجور أقل من ثمانية ملايين نسمة وأن 90% منهم مسلمون وهي بهذا تمهد للإعلان لاحقاً عن سيادة الهان على البلاد عددياً بحيث يبدو الإقليم بعد عقد أو عقدين وكأنه جزء حقيقي من الصين لا يستطيع أحد إنكاره ولا تستطيع أية قوة أن تتجاهل التغييرات الجذرية فيه نظراً لما سيشتمل عليه من كثافة سكانية هائلة ذات حصون قوية.

2) التنمية والتمييز العنصري

من الطبيعي أن يؤدي هذا الواقع إلى إصابة الأويجوريين بالفزع خاصة وأن الإجراءات المرافقة للسياسة السكانية ستنعكس قطعاً لا على هوية الإقليم فحسب بل وحتى على فرص العمل والتنمية فالأويجوريون يعيشون في بلادهم على هامش الحياة الاجتماعية والاقتصادية فهم يعانون من التمييز العنصري في العمل والمصانع لصالح الهان التي تسيطر على القطاعات الصناعية برمتها، وتشغّل أفرادها وتستقطب غيرهم من الصين بينما سكان البلاد يقفون كالمتفرجين.

ولا ريب أن الأويجوريين يشعرون باضطهاد واسع النطاق من قبل الحكومة الصينية، وهم يشكون منذ زمن طويل من أن الهان يجنون معظم فوائد الدعم الرسمي ويجعلون السكان المحليين يشعرون بأنهم غرباء في ديارهم ومع ذلك فليست لهم طموحات كبيرة، وبحسب عليم سيتوف، الأمين العام لرابطة الأويجور بأمريكا، فإن: كل ما يطالب به الأويجور هو أن توقف الصين التمييز العنصري ضدهم، غير أنهم يواجهون بقمع لا يمكن تصوره.

هكذا لا يبدو أن الأويجوريين يبالغون فيما يزعمونه من تمييز عنصري ضدهم، فليسوا وحدهم من يتذمر من سوء الحال فهناك من يرقبهم عن كثب ويلخص معاناتهم، فقد رأى أويس هتشيت، مدير مركز الدراسات الفرنسية عن الصين المعاصرة في هونج كونج، أن: السكان

الأويجور محصورون في المناطق الريفية، ومحصورون في الحرف الزراعية التي لا تضيف لهم أية مكاسب مادية أو معنوية توازي ما تقدمه المصانع والشركات البتروكيماوية لغيرهم من السكان.

ولعل أخطر ما في التصريح ملاحظة أن الأويجور ليسوا مشمولين بخطط التنمية الصناعية ولا بعائدها لأن المشروع صيني صرف ليس للإقليم فيه حظ يذكر من التنمية إلا لسكان المدن حيث تتركز قومية الهان، في حين أنه يمثل حجر الزاوية في الانطلاقة الاقتصادية العالمية للصين لذا فقد أشارت بيانات إحصائية حول مستويات الدخل أن الفارق بين سكان المدن والقرى وصل إلى ثلاثة أضعاف، وعليه فمن الطبيعي أن يواجه الأويجور حرماناً من التعليم المتقدم بحيث تكون النتيجة المنطقية للسياسة الصينية حصرهم في السلم الأدنى من المهن حتى الوضيعة منها.

ففي تحقيق مطول عن البلاد 2008، ذكرت صحيفة كريستيان ساينس مونيتور الأمريكية أنه: بمساعدة الحكومة صار أتباع عرق الهان هم المسيطرون على غالبية المصانع والشركات، ولا يقبلون عمالة بها من غيرهم؛ مما اضطر الأويجوريين إلى امتهان أعمال متدنية مثل الخدمة في المنازل وما هذا إلا سلوك امبريالي فج يذكر بسلوك اليهود لما أعلنوا عن صهينة العمل ومنع الفلسطينيين من العمل في المصانع اليهودية

أواخر عشرينات القرن العشرين، فضلاً عن أنه العنصرية بعينها فالأويجور حسب السياسة الصينية، كالفلسطينيين، ليسو شركاء أبداً لا في وطنهم ولا في المشروع الاقتصادي فلماذا لا ينفجرون غضباً؟!.

3) مواطنون من الدرجة الثانية

لكن الأسوأ يكمن في الفقر والعوز والفاقة والحرمان والهامشية الاجتماعية كعوامل قد تدفع بالإنسان في لحظات ضعفه إلى التعلق بأسباب الحياة فقد لجأت الحكومة الصينية إلى إشاعة مناخ من الخوف والرعب في صفوف الأويجور، هذا الشعور بدت ملامحه المرعبة حين أصر السكان على رفض مرور الشعلة الأولمبية 8 أغسطس 2008 من أراضيهم خشية أن تستغل لتشديد عمليات القمع والاضطهاد ضدهم ويبدو أنهم كانوا محقين في مطلبهم فكيف سيكون حالهم إذا كان زوار الصين أنفسهم اضطروا، تحت طائلة المسؤولية، إلى تعبئة استمارة أمنية من مائة سؤال شملت حتى مقاس الحذاء؟!.

وعليه فليس من المستغرب أن يفقد الأويجور فرص الحياة الكريمة ويلجأوا إلى التكسب بوسائل غير مقبولة اجتماعياً ولا شرعياً فالحكومة الصينية لا تستعمل الأويجور في مشروعها الاقتصادي بقدر ما

تستعملهم في التجسس على بعضهم حيث تدفع لهم لقاء ما يقدمونه من خدمات أمنية فما يهم الحكومة هو الحصول على المعلومات ليس إلا.

وغني عن القول أن مثل هؤلاء لا يستحقون المشاركة في الحكم ولا عجب أن تختصر ربيعة قدير الأحداث الراهنة، في تصريح لصحيفة فوكس الألمانية، بالقول إن: الحكومة الصينية منحتنا منذ سنوات نوعاً من الحكم الذاتي، لكنها لا تزال تعاملنا كحيوانات كمواطنين من الدرجة الثانية، وهو ما اعترفت به كريستيان ساينس مونيتور مشيرة إلى أن الأويجوريين أصبحوا: مواطنين من الدرجة الثانية؛ فهم ممنوعون من مجرد تمثيل هامشي في الهيئات الحكومية، كما لا يُسمح لهم باستخدام لغتهم في المدارس ولو من باب الإشارة، فالأويجور لا يستعملون لغتهم التركية في المدارس إلا سراً حيث تفرض عليهم السلطات الصينية استعمال اللغة الصينية، أما في الجامعات فقد باتت اللغة الصينية ابتداء من عام 2002 هي لغة التدريس الوحيدة في جامعة سينكيانج.

4) الحرب على العقيدة

كل ما سبق من تحليلات يقع في كفة وحرب الحكومة الصينية على الدين في كفة أخرى بل إن الطعون المتاحة في التصريحات والأحداث لا تجد لها أي حظ من النجاح إذا ما تعلق الأمر بالدين فالمسألة هنا تتعلق

بـإجراءات وبيانـات جهريـة متلاحقـة تناسـب الحكومـة ذات العقيـدة الماركسية مثلما تناسب قومية الهان، التي تشكل 90% من سكان الصين، وذات الطبيعة الدهرية أو الوثنية في أحسن الأحوال.

والطريف في بيانات الحزب الشيوعي أنها تتعلل بجماعات الجهاد لتبرير حملاتها وإجراءاتها القمعية وهو ما ترفضه كل القوى والمنظمات الأويجورية ولا شك أن لهذه الجماعات نفوذ حقيقي على الأرض وتحظى بقبول اجتماعي لا بأس به خاصة وأنها ذات طبيعة عقدية أكثر منها سياسية لكن نشأتها ليست بمنأى عن الحرب الشعواء التي يتعرض لها السكان كمسلمين ولا عن العقيدة والتراث الإسلامي والديني الذي استبيح بكل شراسة ومهانة من قبل الشيوعيين حتى قبل أن تظهر مثل هذه الجماعات لذا فإن مشكلة الصينيين كائنة مع مسلمي الأويجور بوصفهم أمة وليس مع جماعات جهاد فقط.

تتحدث المصادر تركستانية بإسهاب مؤلم ليس عن التضييق الشديد على المسلمين في تركستان فقط بل عن تحقير وضرب في صميم العقيدة الإسلامية عبر التدخل فيما يسمح وما لا يسمح القيام به من الشعائر الدينية! فالعبادات والأحكام والمعتقدات والوعظ والإرشاد وتعلم القرآن والهيئة واللباس واللحى والمناسبات والأعياد الدينية وحتى صلاة التراويح والقيام باتت بيد الشيوعيين ليقرروا فيها، حين يشاءون، ما

يلزم وما لا يلزم القيام به كتدابير وقائية تجاه ما يرونه خطرا على استقرار الإقليم!

وكما أورد بيان المركز الإعلامي للحزب الإسلامي تركستاني فقد منعت السلطات الصينية مثلا: إقامة الشعائر الإسلامية، وأحرقت ملايين الكتب الإسلامية والمصاحف، ومنعت رفع الآذان في المساجد، ومنعت الشباب من أداء الصلاة لمن هو أصغر من 18 سنة، ومنعت النساء من الحجاب الإسلامي وإلا تعرضت للاعتقال والتعذيب والثابت أن الضغط الحكومي لا يتوقف على الإجراءات الداخلية فهو يشمل حتى الطلبة والمسافرين والمعتمرين والحجاج ويشمل منع إصدار جوازات السفر أو مصادرتها ومنع التنقل فقد صادرت السلطات جوازات سفر طلاب الجامعات خلال شهر رمضان سنة 2007، ومنعتهم من السفر لأداء فريضة الحج وفي مقابلة لها مع صحيفة الشرق الأوسط، 10 يوليو 2009، قالت ربيعة قدير إن: كبار رجال الدين و90 من الطلاب الأويجور الذين درسوا الدين الإسلامي في السعودية ومصر يقبعون الآن في السجون الصينية بل إنه ما من شيخ أو عالم في تركستان الشرقية إلا وقضى بعضاً من سنين عمره في السجون الصينية.

والحقيقة أن الإجراءات التي اتخذتها الحكومة الصينية ضد مسلمي تركستان يمكن إجمالها، نسبياً، إذا ما استعنا بمقالة الكاتب الأويجوري توختي آخون أركن مع بعض التصرف، حيث يشير إلى:

منع ممارسة الشعائر الدينية ومعاقبة كل من يقوم بها بموجب القوانين الجنائية ومنع تعليم الدين الإسلامي، وفرض تدريس الإلحاد في المدارس والنوادي والتجمعات ومصادرة المصاحف والكتب الإسلامية وبلغ ما جمع منها 730 ألف كتاب مطبوع ومخطوط، وإجبار رجال الدين والعلماء على امتهانها وإحراقها في الميادين العامة، ونشر الكتب والمطبوعات المعادية للإسلام ورفع الشعارات والملصقات المسيئة للإسلام وأحكامه وتعاليمه، مثل: الإسلام ضد العلم والإسلام اختراع أغنياء العرب والإسلام في خدمة الاستعمار واعتقال العلماء ورجال الدين واحتقارهم وفرض أعمال السخرة عليهم، وقتل من يرفض التعاون معهم وإجبار النساء على خلع الحجاب، وإلغاء العمل بالأحكام الشرعية في الزواج والطلاق والمواريث، وفرض الاختلاط، وتشجيع الزواج بين المسلمين والمسلمات من غير دينهم؛ بغية تخريب العلاقات الأسرية الإسلامية وإغلاق أكثر من 28 ألف مسجد و18 ألف مدرسة دينية، واستخدام المباني الإسلامية كالمساجد والمدارس في أعمال تتنافى مع قيم الإسلام كتحويلها إلى حانات ومخازن ومصادرة أموال الناشطين في

العمل الإسلامي سواء كان بالتعليم أو التدريس أو التأليف والترجمة، وهدم بيوتهم ونفيهم من منطقة سكنية إلى الصحراء بعيدًا عن الناس وعن الجماعة ومنع السكان من السفر خارج البلاد وفرض النظام الجاسوسي على أفراد الشعب كله.

هذه بعض الحقائق المرة التي أخفتها الصين عن العالم، كما علق مسلم أويجوري على الأحداث لذا لم يكن الرئيس التركي رجب طيب أردوغان يكذب أو يراوغ سياسياً حين أكد في تصريحات لمحطة (NTV) نقلتها وكالة رويترز، 10 يوليو 2009، بأن: الأحداث التي تشهدها الصين لا تعدو كونها أعمال إبادة جماعية، مضيفا أنه: لا يوجد فائدة من وصفها بوصف آخر ولم يكن ديل شات راشيت، المتحدث باسم مؤتمر الأويجور العالمي، يبالغ هو الآخر حين علق، من منفاه بالسويد، على غضب مكبوت يتزايد منذ مدة طويلة لدى الأويجور بأنهم: تعبوا من المعاناة في صمت.

لكن رغم التاريخ الدموي للصين ضد المسلمين لاسيما في تركستان الشرقية إلا أن الصين التي تعودت الكذب في سياساتها القمعية لا تخجل مما تفعل ولا تنكره فهي تعلم أن العصر الراهن هو عصر الاتصالات، وبالتالي فإن ما يحدث لا بد وأن يجد طريقه إلى الملأ خلافاً لعصر المذابح الصامتة ومع ذلك تعاملت بكل وحشية مع الاحتجاجات، وهددت

باتخاذ إجراءات عقابية إذا ما طبقتها فستنتهي بمذبحة جديدة بل إنها استخدمت كافة إمكانياتها لإخفاء ما يمكن إخفاؤه من الجريمة، فأغلقت الشبكة، وأوقفت عمل الهواتف المحمولة وصادرت ما أمكنها من وسائل الاتصال بما فيها أجهزة الحاسب، ودمرت مواقع الأويجور على الشبكة وأشارت رويترز إلى حذف السلطات للتعليقات وصور القتل التي تعرض لها مسلمو الأويجور في الإقليم من المنتديات والمواقع الشهيرة.

إلى هنا فإن إلقاء اللوم على قوى خارجية لن تنفع الصين في شيء، ولن تؤدي إلى استقرار الإقليم طالما أن ماكينة القمع والحزب ذات مواصفات عنصرية ودموية وعدوانية في الداخل وهكذا فللسياسة الصينية العقيمة نصيب الأسد في دوام الصراع في منطقة مرشحة أصلاً للانفجار لكن إذا ما اعتقدت الصين أن بإمكانها لجم الولايات المتحدة عن التدخل الماكر، إلا من إبداء الأسف؛ أو أن سياساتها الداخلية ضد السكان الأويجور شأن داخلي، كالشيشان، فعليها أن تجيب عن سر نمو جماعات الجهاد فيها وتمددها، وما إذا كانت الصين قادرة مستقبلاً على تجنب إلحاق الأذى بها في سينكيانج بالذات حيث البنى التحتية لمشروعها الاقتصادي إذ أن مثل هذه الجماعات العقدية لا تردعها كثرة المذابح ولا يضيرها أن تجري بصمت خلف الأسوار ولا تعنيها الإدانات الدولية ولا

تنتظر من ينتصر لها طالما أنها تؤمن بأن الله أكبر وأن الله معها يدافع عن الذين آمنوا.[1]

obeikandl.com

1-عن مقال للأستاذ فهمى هويدى نشر فى صحيفة الخليج الاماراتيه وجريدة الشروق المصرية بتاريخ 2009/07/14